بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ وربك الأكرم
الذي علم بالقلم

بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري

إيضاح المسالك
إلى
قواعد الإمام مالك

تأليف :

أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي

تحقيق

أحمد بو طاهر الخطابي

خريج دار الحديث الحسنية - الرباط

مع

دراسة لحياة المؤلف وآثاره وعصره

طبع هذا الكتاب

بإشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي

بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة

الرباط - 1400 هـ - 1980 م

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ وربك الأكرم

الذي علم بالقلم

بمناسبة مطلع

القرن الخامس عشر الهجري

إيضاح المسالك
إلى قواعد الإمام مالك

تأليف :

أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي

تحقيق

أحمد بو طاهر الخطابي

خريج دار الحديث الحسنية - الرباط

مع

دراسة لحياة المؤلف وآثاره وعصره

طبع هذا الكتاب

بإشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي

بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة

الرباط - 1400 هـ - 1980 م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــــم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد فإن كتاب ((إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك)). لمؤلفه العلامة الشهير أبي العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي تغمده الله برحمته، الذي نقدمه للقراء الكرام يعتبر بحق من أبرز وأنفس وأثمن وأجمع كتب الفقه المالكي التي اهتمت اهتماما بالغا بدراسة موضوعات قواعد فقه المذهب المالكي فهو ذخيرة علمية تضاف إلى لبنات ذخائر فقهنا الإسلامي الهادف، الذي تزدان بمختلف فروعه مكتباتنا الإسلامية زيادة على أنه قد جمع بين التحقيق والتدقيق والتنقيح والبيان والإحاطة في العمق والشمول لعدد غير قليل من الأصول والنوازل والفروع والقواعد والشروح والتنبيهات الفرضية منها والكلية.

فرسم بذلك لهذه المعلمة الفقهية المالكية صورة واضحة المعالم والمنهج مستنبطة من كتاب الله عز وجل أولا، ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ثانيا.

يلمس ذلك القارىء من خلال تتبعه لهذا الكتاب كما يلمس بوضوح وجلاء ما للمغاربة القدامى من تضلع وتمكن في هذا الفن بالذات وسبر لاغواره عبر التاريخ مخلفين كشاهد على

ذلك مجلدات كثيرة تزخر بها مكتباتنا الفقهية العامة منها والخاصة.

واعتبارا لما ذكر في هذه العجالة عن الكتاب وأهميته البالغة وقيمة موضوعاته العلمية والفقهية النادرة وأثرها في هذا التراث المتألق في سماء موقعنا الغربي الإسلامي وما أنجبه هذا الغرب الإسلامي من عباقرة شوامخ في هذه الحلبة وفي غيرها ما يزال واسطة عقد القلادة في فقه هذا المذهب المالكي بهذه الديار.

من أجل ذلك ارتأت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية أن تقدم هذه الدراسة كاملة في كتاب تضعه كباقة فواحة العبير شهية الأخذ والتناول لعشاق هذا الفن الإسلامي هدية بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري، بعد اتفاقها مع الأستاذ أحمد بوطاهر الخطابي على نشر هذه الدراسة الجامعية التي قدمها لنيل دبلوم الدراسات العليا في العلوم الإسلامية من دار الحديث الحسنية بالرباط ـ ومنحت لها لجنة المناقشة ميزة «حسن جدا» تقديرا لما بذله الأستاذ من جهود مضنية في إخراج كتاب «الإيضاح».

فريد نوعه في الكيف والمضمون والنوع.

وتم الطبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة.

صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك
بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة
الرباط في عام 1400 هـ
موافـــــــق 1980م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

الحمد لله حمدا يليق بجماله وجلاله،

والصلاة والسلام على سيدنا محمد واله وصحبه

إن من نعم الله الكبرى على الأمة الإسلامية، تكريمها بالرسالة المحمدية، الخاتمة للشرائع السماوية، الجامعة للمصالح البشرية، الواردة بالأصول الكلية ـ لطفا منه سبحانه ورحمة بعباده ـ، لتستنبط منها الأحكام الملائمة لكل جيل وبيئة، تاركة المجال فسيحا لذوي المؤهلات الاجتهادية، مواصلة التشريع الفرعي والجزئي لكل نازلة، وإيجاد حلول شرعية لمختلف القضايا المتجددة، في نطاق النصوص الكلية للشريعة السمحة، دون الخروج عن اهدافها العامة، ومقاصدهـــا السامية.

وقد طبق ـ عمليا ـ خدام الشريعة هذه المنهجية السليمة عبر المراحل التي مر فيها الفقه الاسلامي، الذي بلغ القمة في عهد الائمة الكبار، انطلاقا من ظهور مدارسه التي تبلورت إلى مذاهب، كل له منهاجه في الاستنباط، وتلاميذه وأتباعه، يمدهم بالرواية والدراية الفقهية، ويدرس النوازل الواقعة، بل منهم من تناول الفرضية منها، والكل يستنطق الينبوع الأساسي للتشريع الإسلامي : كتاب الله أولا، وسنة رسول الله ـ ثانيا، ثم المصادر الأخرى ـ ثالثا. وهنا اختلفت الاراء إلا أن الاختلاف لم يكن ـ في الواقع ـ في ذات الدين، ولا في لب

4 ـ المذهب الحنبلي :

وإمامه : أحمد بن حنبل، ولد وتوفى ببغداد (164 ـ 241) وكان إماما في الحديث بدون منازع، وانتشر مذهبه في المشرق عموما، غير أنه مع مر الأيام كاد أن يندثر ـ حيث لم يبق له حتى في البلدان التي انتشر فيها غير صدى خافت ـ لو لم يحيه محمد بن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر الهجري، ومنذئذ انتعش، وأصبح له أتباع في بعض البلدان الإسلامية كالحجاز، والشام.... عدا المغرب.

من هذا يتضح أن المذاهب الفقهية السنية التي كتب لها البقاء، كانت ـ ولا زالت ـ منتشرة ومتنافسة في جل البلدان الإسلامية، باستثناء المغرب الأقصى الذي تسنم عرشه المذهب المالكي ـ منذ أن تقلده المغاربة، رغم محاولة بعض ملوك الموحدين القضاء عليه ـ لكن بدون جدوى، الشيء الذي يدعو إلى طرح الأسئلة التالية : لماذا انفرد المذهب المالكي بالنفوذ في المغرب ؟ وما هي البواعث التي دفعت أهله إلى التمسك به تمسك الرضيع بأمه ؟ وهل ذلك عن اختيار واقتناع بصلاحيته ؟ أم فرض عليهم بالقوة ـ كما يدعي البعض ؟ أم أن ذلك كان كنتيجة حتمية لعدم تعرفهم على المذاهب الأخرى ؟.

إن المستنطق لتاريخ المغاربة سيجد أنهم كانوا يتسمون بالصلابة في الرأي، والتروي في اتخاذ المواقف الحاسمة، وعدم إقبالهم ـ بلهفة ـ على كل جديد، وعدم تأثرهم بسرعة بكل وارد ـ كما هو ملاحظ اليوم ـ إلا بعد اختبارهم إياه، والتثبت منه بأنه يتلاءم مع مزاجهم، وبيئتهم : الاجتماعية والعرفية، والعقلية، والنفسية... وهذا الموقف نفسه وقفوه ازاء الإسلام حيث لم يعتنقوه اعتناقا صادقا، وامنوا به إيمانا عميقا : امتزج بدمهم ولحمهم، إلا في الكرة الثانية عشرة ـ كما يذكر ذلك ابن أبي زيد القيرواني ـ حينما تيقنوا أنه ليس له مثيل،

ومنذئذ لم يرضوا به بديلا، وصاروا يدافعون عنه - ولا زالوا - بكل ما أوتوا من قوة، وكفاهم فخرا أنهم كانوا في طليعة الناشرين له في أوربا وافريقيا.

وإذا كان هذا موقفهم مع الإسلام، فليس بصحيح ما ادعاه ابن حزم من أن المذهب المالكي لم ينتشر في الأندلس والمغرب إلا بالسلطة، ويفند زعمه هذا بالنسبة للمغرب ما قام به بعض ملوك الموحدين، وخاصة يعقوب المنصور من محاولات لمحو المذهب المالكي منه، بإحراق كتبه بالجملة، وإلزام المغاربة بالتخلي عنه رهبة، إلا أن النتيجة كانت عكسية، حيث ازداد المغاربة تمسكا به، نعم قد تكون السلطة سببا مكملا لحماية الإرادة الشعبية من تشكيكها في عقيدتها الاشعرية، ووحدتها المذهبية، والعمل على تنقيتها من الطفيلات الشاذة.

كما ليس بصحيح - بتاتا - الظن بأن السبب في انتشار مذهب مالك واستمراره بالمغرب يرجع إلى عدم تعرف أهله على المذاهب الاخرى، لأن التاريخ يثبت بكيفية قاطعة، أن كثيرا من المذاهب السنية وغير السنية وفدت على المغرب، وعاشت فيه مدة، وحاولت التمركز فيه قبل وبعد إدخال المذهب المالكي إليه. غير أن المغاربة تخلوا عنها لسبب أو لاخر، وتمسكوا بمذهب مالك، وذلك لعدة عوامل :

عوامل تمسك المغاربة بمذهب مالك :

ليس من اليسير في هذه العجالة تقصي كل العوامل والاسباب التي حفزت المغاربة إلى التشبث بمذهب مالك، لذا سأكتفي بالإشارة الى البعض منها :

1 - نشوء المذهب بالديار المقدسة.

2 - ورود الاثر في صاحب المذهب.

3 - إشادة مختلف الائمة به.

4 ـ تشابه البيئتين : المغربية والحجازية.

5 ـ طبيعة المذهب نفسه وخصائصه.

1 ـ بزوغ المذهب بالبقاع المقدسة :

من المسلم به أن كل مسلم له ارتباط وثيق ـ عقيديا وروحيا ـ بالديار المقدسة : منبع الرسالة المحمدية، منذ اعتناقهم الإسلام، وظهور مذهب فقهي سني في دار الهجرة، هدف صاحبه خدمة السنة النبوية، بتدوينها وحمايتها من الشوائب، وتوطين فقهه بها في مسجد الرسول الأكرم، وبجوار قبره ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتعاقب الوفود من التلاميذ والحجيج ـ باستمرار ـ على المدينة المنورة، يرتوون ويروون، ثم انتشارهم انتشار الشعاع في شتى الأصقاع، مبلغين أصداء هذا المذهب ومزاياه إلى كثير من بقاع العالم الإسلامي ـ ومنه المغرب، واقترن طول عمر الإمام، وكثرة العلم، بعظمة المكان ذاته : بيت الله الحرام، ومسجد رسول الله، وهيبة قبره، ومغداه ومرحاه، وأبنائه، وأبناء أصحابه، والأثر والذكر العطر بنوره، بلدة طيبة، وعلم زاخر... كل ذلك وغيره، أهَّلَ الديار المقدسة ـ بصفة عامة، والمدينة المنورة بوجه خاص ـ ان تكون بذاتها وبروحها عاملا مهما لانتشار واستمرار مذهب مالك بالمغرب، وتمسك أهله به، تمسكهم بالعروة الوثقى، وذلك لعدة اسباب، منها :

ا ـ خروج المذهب على يد تلامذة مالك، وإدخالهم إياه إلى بلدانهم وغيرها، وكان أول من ادخله إلى شمال افريقيا تلميذ مالك : أبو الحسن علي بن زياد التونسي (تـ 183 هـ).

ب ـ توافد الحجيج كل سنة على تلك البقاع المقدسة، وإعجابهم بالمذهب الذي وجدوه امتدادا لنهج السلف عقيدة، وعملا.

ج ـ توارد الوفود تلو الوفود من الفقهاء وغيرهم على المغرب من القيروان والأندلس، وخاصة في عهد مولاي إدريس الثاني، وكان أول وفد ورد عليه مكونا من عرب : قيس، والازد، ومذحج، ويحصب وغيرهم، واستقضى منهم عامر بن محمد بن سعيد القيسي، الذي كان من تلامذة مالك، فانتشر مذهب مالك بالمغرب وعم أرجاءه، لا سيما حين أدخلت مدونة سحنون على يد أبي ميمونة دراس بن اسماعيل الچراوي الفاسي شيخ أبي الحسن القابسي، وابن أبي زيد القيرواني وغيرهما. (تـ 357 هـ).

2 ـ ورود الأثر في صاحب المذهب :

لعل من أهم العوامل التي حدت بالمغاربة إلى اتباع مذهب مالك وتفضيله على غيره، ـ ما وقع من اجماع الأمة على إمامة صاحبه، وما ورد فيه من اثر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة (ض) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ النَّاسُ أَكْبَادَ الإِبِلِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ـ وفي رواية ـ يَلْتَمِسُونَ الْعِلْمَ، فَلَا يَجِدُونَ عَالِماً أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ».

ورواه أبو موسى الاشعري بلفظ «يَخْرُجُ النَّاسُ مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فَلَا يَجِدُونَ عَالِماً أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ».

وعلق سفيان بن عيينة على هذا الحديث ـ قائلا : «نرى أن المراد بهذا الحديث مالك بن انس». وعضده كثير من أهل العلم كالقاضي أبي محمد عبد الوهاب الذي قال ما معناه : لا يمكن أن ينازعنا في هذا الحديث أحد من أهل المذاهب الاخرى، لكون السلف والخلف كانوا إذا قالوا «عالم المدينة» لا يقصدون بذلك إلا مالك بن انس.

3 ـ إشادة مختلف الأئمة بمالك :

وربما كان من العوامل التي جعلت المغاربة يتشبثون بمذهب مالك، إشادة مختلف الأئمة بعلم مالك، وورعه ورجاحة عقله، وتعمقه في فهم أسرار الشريعة، و.... فهذا الإمام الشافعي يقول في حقه : ((مالك أستاذي وعنه أخذت العلم، وما أحد أمَنَّ عليَّ من مالك، وجعلته حجة بيني وبين الله)).

وقال في حق موطئه : ((أصح كتاب بعد كتاب الله موطأ مالك)).

وقال ابن مهدي : ((ما رأيت أحدا أتمّ عقلا، ولا أشدّ تقوى من مالك)). و ((ما بقي على وجه الأرض آمنُ على حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مالك)).

وقال سفيان بن عيينة : «كان مالك سراجا، وحجة في زمانه».

وقال أحمد بن حنبل ـ : «مالك سيد من سادات أهل العلم، وهو إمام في الحديث والفقه».

4 ـ تشابه بيئة البلدين :

لقد أورد لنا ابن خلدون تعليلا دقيقا لانتشار مذهب مالك في المغرب والأندلس، منطلقا من حسه الاجتماعي الفياض، قائلا :

((إن أهل المغرب والأندلس، كانوا إلى أهل الحجاز أميل، لمناسبة البداوة التي كانت غالبة عليهم، ولم يكونوا يعانون من الحضارة التي لأهل العراق....)).

وبهذا المنظر الخلدوني، يمكن أن ندرك أثر البيئة : المادية، والمعنوية في تقبل هذا المذهب أو ذاك، فالبداوة، والحضارة، والخصب، والجدب، والغنى، والرخاء، والنعيم، والبؤس، والأخلاق، والأعراف، والتقاليد، وغيرها من المظاهر البيئية التي يتشابه في جلها البلدان : الحجاز

والمغرب ـ كل ذلك كان له أثر فعال، مما يجعل أن يسلم تعليل ابن خلدون بدون جدال.

5 ـ طبيعة المذهب نفسه، وخصائصه :

إن النفوس ميالة ـ إلى اتباع مذهب ما ـ بطبيعتها، لما يتوفر عليه من يسر ومرونة في أصوله وقواعده، ومنهجه في الاستنباط، وطريقته في معالجة الحوادث النازلة، ومدى توخيه المصلحة، ودفع المشقة، اللذين هما لباب الدين ـ مقصدا ومنهجا، ومنهما يفوح شذى السنة الأرج، وما يتراءاه العباد فيها من سهولة وسماحة، امتثالا لغير ما آية من كتاب الله جل علاه : ((يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...)) ((وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)) ـ ولقول الرسول عليه السلام : ((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ)) وقوله : ((يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا ...)) الحديث.

ومذهب مالك ـ بدون شك ـ يتسم بما سلف وبكثير من الخصائص الأخرى، منها :

1 ـ كونه يعتبر الممثل الأصيل لفقه الفقهاء السبعة، الذي التزمه أهل مدينة الرسول، فهو امتداد طبيعي، عضوي، فكري، وتاريخي لأيام الرسالة، واقترانه بفكرة إتباع السنة، وترصده عمل السلف الصالح، ورسوخ ذلك كله في أذهان المغاربة، جعلتهم يقبلون عليه بشغف كبير، استمساكا بعامل الأمان، حتى لا يتورطوا في مستحدثات الأمور ومبتدعاتها، ورأوا أن الاتباع منجاة لهم من الوقوع فيما لا تحمد عقباه في دينهم ودنياهم، والإمام الذي وهب نفسه لخدمة السنة المطهرة، جدير أن تهفو الأفئدة لاتباعه، واتخاذه قدوة، وتطمئن إليه الفئة العاجزة عن استنباط الأحكام بنفسها من ينبوع الشريعة الإسلامية.

2 ـ سلوكه مسلكا وسطا :

أظن أن المغاربة فضلوا المذهب المالكي، وتمسكوا به تمسكا فريدا، لسلوكه مسلكا وسطا : لا إفراط فيه ولا تفريط، بحيث لايعتمد على الرأي والقياس، بقدر مايعتمد على النصوص، ويتبع ما أجمع عليه أهل المدينة، ويبتعد عن كل ما ليس فيه مصلحة راجحة للعباد. وهو بهذا كله ينسجم مع طبيعة المغاربة التي تتشبث بالنقول الثابتة، والنصوص الصريحة، وتنفر من التأويلات البعيدة، والتشديدات المنفرة، والتعقيدات السقيمة، خوفا من الوقوع في الشبهات ((الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ...)) الحديث.

3 ـ خصوبة مصادره، وتعدد أجواء الاجتهاد فيه :

لا شك أن أي مذهب تنمو فروعه، وتتسع افاق التفكير فيه بتعدد أصوله، وخصوبة مصادره، ومدى سعة تفكير الساهرين عليه من بعد إمامهم، وتعدد أجواء الاجتهاد فيه... ومذهب مالك متوفر على هذا كله، فأصوله كثيرة، وقواعده خصبة، ومناهجه متنوعة، وتلاميذ الإمام ومن بعدهم قد وسعوا تفكيرهم في تطبيق أصول إمامهم في مختلف الميادين، وتفننوا في وضع القواعد وتنويعها، وجمع عدة أحكام تحت كل واحدة منها، وبذلك تركوا لنا ذخائر من التراث الفقهي الأصيل، المبني على القواعد والأصول، لا يقدر بأي ثمن.

4 ـ التمسك به جمعا للكلمة، وصونا للوحدة :

ولعل من أهم الأسباب البارزة التي جعلت المغاربة يتشبثون بمذهب واحد، انهم أخذوا درسا مما وقع فيه غيرهم من بعض البلدان الإسلامية، ولا زالوا ـ مع الأسف ـ من براثن النزعات الطائفية، والخلافات المذهبية، التي شتتت أوصال البلد الواحد، بل مزقت أواصر الأسرة الواحدة، مع أن الدين واحد، وهدف الأئمة ـ رضوان الله عليهم ـ

واحد، وتصيد الرخص حرام بالاجماع ... وتفاديا لذلك، اتفقت كلمتهم على اتباع مذهب واحد، ووحدوا صفوفهم عليه، مفضلين العيش في أمان ووئام، تحت لواء الإسلام، ملتزمين الصف الواحد، والرأي الواحد، في كنف العقيدة الأشعرية، والوحدة المذهبية، مرددين مع الشاعر :

نظرنا في المذاهب ما رأينـــا كمذهب مالـك للناظرينـــا
ومذهبه اتبـاع لا ابتـــداع كما اتبع الكريـم الأكرمينـــا
وعندي كل مجتهـد مصيـــب ولكن مالـك فـي السابقينـــا